ثقافة وفنون

■ بقلم: خاتشادوريان ■

كاتب هذا المقال هو واحد من كبار موسيقيي عصرنا : آرام خاتشادوريان الفنان السوفياتي الحائز على لقب « فنان الشعب » ، وفي العالم اجمع يعرف كمطور ومستفيد كبير من الموسيقى والغناء الفولكلوري لارمينيا وجورجيا اضافة الى فولكلور الشعوب السلافية .

يستعرض خاتشادوريان في هذا المقال ذكرياته وانطباعاته خلال عمله وآراءه في الموسيقى وعلاقتها بالشعب، ويذكر قراءنا المقال الذي كتب حول مغناة سلفادور غرنيطة (بطاقة هوية) والرد عليه ، ان هذا المقال مساهمة في اغناء الحوار حول شعبية الموسيقى وطبيعتها الانسانية . ونحن نتقبل كل مساهمة تقدم لنا حول هذا الموضوع.

« الهدف »

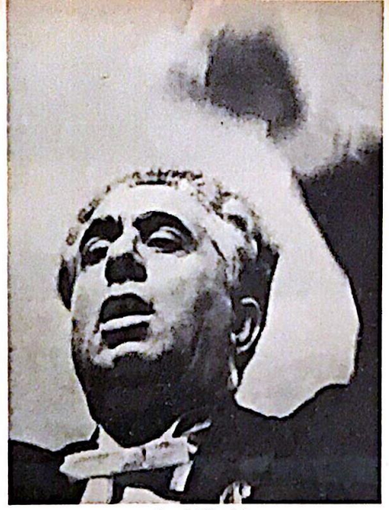

آرام خاتشادوريان

الموسيقى و الشعب

لقد تكلمت اكثر من مرة ، في لقاءاتي المتعددة مع الصحافيين والاصدقاء الاجانب ، عن الحياة الموسيقية في بلادنا ، والجو الرائع الذي يسهل للمؤلف عمله مما يجعله يفيض ابريجيه وابداعية خلاقة .

ومما لفت نظر الصحافيين والزملاء الاجانب وزاد اعجابهم ، ظروف العمل وتنظيمه الدقيق وحياة الموسيقيين السوفيات الخاصة ، وكذلك المؤلفين ، والكتاب ، والرسامين . وغير نظرتهم ازاء التشجيع الحكومي من الدولة الذي يلقاه الكتاب ، والمؤلفون والفنانون في الاتحاد السوفياتي اذ تعتبر اعمال هؤلاء مساهمة في البناء الاشتراكي والتطور الاشتراكي مما يزيد في اغناء الشعب روحيا وثقافيا .

ان اتحاد الموسيقيين السوفيات منظمه اجتماعية وفنية تضم اكثر من ١٥٠٠ مؤلف وموسيقي . ويضم الاتحاد كل المنظمات التي تعنى بشؤون الموسيقى والمؤلفين في الجمهوريات السوفياتية والمدن الكبرى . واتخذت هذه المنظمات الصفة الرسمية سنة ١٩٣٢ ، لجمع الشمل بين المؤلفين والموسيقيين .

وخلاف لبعض المنظمات الغربية التي تعنى بشؤون حقوق المؤلفين والامور المالية ، تعنى الاتحاد بالشؤون الفنية وتطويرها . فيقيم المهرجانات والمعارض الفنية وحفلات الموسيقى العصرية والكلاسيكية وبعض الندوات الخاصة بالموسيقى وشؤونها وشجونها . والاتحاد له وحده الحق في اختيار وقبول الاعمال الجديدة كالاوبرات ، والباليه .

وحصل لي ، في السنوات الاولى التي انشئ فيها الاتحاد ، اذ كنت نائبا للرئيس وبعد ذلك الامين العام للاتحاد ، أن اشتركت في اعمال اللجنة المكلفة بالبحث في الاعمال الجديدة المقدمة للاتحاد . وتجمع الاتحاد بذلك، بغرض هيئه وصفته الرسمية على كل المؤلفين والموسيقيين .

واتسعت عائلة الموسيقيين في الاتحاد السوفياتي الى ان وصلت الى ٢٠٠٠ شخص، واعطى البلاد مواهب فذة جديدة خطت بالموسيقى الى الامام امام الاجيال الطالعة . وطلب الاتحاد بعد ذلك، من الدولة ، اعطاء الصفة الرسمية لبعض المؤلفين ، كأناس محترفين يجيدون العمل في حقل الموسيقى ولهم ماض عريق وربما مستقبل زاهر.

وفي حقل الفن ، وخاصة في الموسيقى ليس الكمه هي المطلوبة ، بل النوعية هي التي تعطي القيمة لعمل المؤلف . ولا اخذ هنا موقف الناقد او الموسيقي الفيلسوف بل اخذ موقف الجماهير التي تختار وتريد ما يعجبها وما يلائمها مع احساسها ، لان الرجل السوفياتي هو ذواقة من الدرجة الاولى في حقل الفن ، كذلك الرجل الذي عانى الكثير في حياته في الحروب والمآسي والنفي والتعذيب نحت لحكم القيصري الاقطاعي.

وهذه الاعمال الناجحة ، بغرض ارادتها وقوتها على الظهور الموسيقي التاريخي وتعطي الصورة البهية لوطننا وشعبنا في الاتحاد السوفياتي .

وانتقل الان الى الحديث عن قضايا ومشاكل الشبيبة والتربيه الموسيقية الاصيله . ويجد اغلبية الشباب الملتزم ، اساسا توريسا في الموسيقى السوفياتيه ، ولذلك لا نستطيع ان نفهمهم بان بطور الموسيقى توقف او انتهى ، بل ان الموسيقى هي حياة تطورية سيكونون روادها في المستقبل العاجل . فالعمل الدؤوب، والتذوق الفني ، والابداعية الخلاقة هي الاساس لكل مؤلف موسيقي وما نريد ان نعلمه او يتعلمه التلميذ في الموسيقى .

ومنذ سنوات عديدة ، وانا مسؤول عن امتحانات كونسرفاتوار موسكو ومعهد « غنسين» للموسيقى . وبين تلامذتي القدماء الذين اثبتوا اقدامهم في الحقل الموسيقي في نجاح نلو نجاح: اندره اشباي ، الذي وضع ثلاث سمفونيات وكونشرتو ، وبعض الاعمال الصوتية والاغنيات.

وهناك ادغار اوغانيان ، مؤلف ارمني وضع سمفونيين وباليه ، وشق طريقه في عمل الاوبرات . ولن انسى اناتول فيارو الفد ، من جمهورية رومانيا الاشتراكية الذي حصل على الجائزة الاولى في المهرجان الدولي في جنيف.

وانا متبع نجاح تلامذتي هؤلاء ، الاحظ انهم اتخذوا طريقا في العمل مختلفة عني ، وهذا ما يدعوني الى احترامهم وتقدير نشاطهم ، لانهم عرفوا ان العمل هو التفتيش الشخصي وليس في النقل عن الغير .

واذا كانت مصالح الوطن تتلاقى وتتلاءم مع حياة الموسيقي الشاب، واذا عمل يجد آخذا المسؤولية والاهداف التي يجب عليه ان يحققها، على عاتقه ، يكون قد ادى خدمات كبيرة لوطنه وبيئته وللموسيقى . انني متأمل في الطريق الصعب في حقل الخلق الموسيقي الابداعي الذي اجتزته ، ارجع الى حياتي الموسيقية ، والى الاحاسيس العميقة التي نالت بها في شبابي في مدينة نيبليسي، قارى ان مجموع ماعملته ووضعه كان تلك الاحاسيس التي نجسدت فيما بعد في موسيقاي والباليه والاوبرات . فتلك الاحاسيس الموسيقية الارمنية والجورجية الشعبية التي نشت اسمعها ، بلورت اذني الموسيقية وجعلتني اخط طريقا شخصية في مجرى حياتي الموسيقية .

فالابداع الشعبي المعنوي يخلق اعمالا جبارة تظل اجيالا واجيالا ، فيجد فنية تتطور وتتبلور الى ان تصبح الحانا خالدة ، ولقاءاتي مع الموسيقى الارمنية ، والروسية ، والاوكرانية ، والجيورجية ، والافريقية ، والاسبانية ، والهندية يخلق في اعتجابا عميقا لجمال الميلودي والسحر الذي يفيض من الاشكال الصوتية المتناسقة . ولن استطيع حتى اليوم ان افهم كيف تنزعرع هذه الاغنيات والموسيقى التي تعبر عن مرامي الشعوب واحاسيسها الاجتماعية والقومية ، التي تعيش في بعض الاحيان في ظروف حياتية صعبه ، او تحت تأثير الاستعمار في استغلال اجنبي او محلي .

والذي يثير الاعجاب ، هو كيفية تناقل هذه الاغاني والموسيقى بصورة شفهية طيلة اجيال ومن هم اصحاب هذه الاغاني ، الذين وضعوها في هذا القالب المبدع . ويبدو لي كجواب على ذلك ان العلاقات الانسانية والوطنية التي كانت اشد ترابطا وتوثقا عما هي عليه اليوم ، هي التي خلدت هذه الاغاني والميلوديات التي وضعت في العصور الغابرة .

وماذا عن الغناء الشعبي ؟

لقد استطعت ان اقوم بزيارة عدة بلدان حيث تعرفت الى ثقافات وعادات شعوب عديدة . ولكنني انحدث عن ذلك بل عن الدولة السوفياتية التي تضم اكثر من ١٠٠ قومية وعنصر ، لكل شعب عاداته وثقافته ، ولكل عنصر موسيقاه الخاصة وعلاقة المؤلف مع بيئته وشعبه وماينتج عن تلك العلاقة الفريدة الحميمة .

وبرث المؤلف غناء الروحي الموسيقي من تراث شعبه وبيئته . وهكذا ، بحكم الوارث الحكيم والاصيل ، يستطيع المؤلف ان يغرف نكلتا يديه وذلك في طابعه الخاص ، وبخط طريقه شخصية حميدة . واتكلم هنا عن الفكر الخيالي الخلاق للمؤلف ، الذي سيفي شر الخطر من الفرق في النقل حرفيا ، تراث شعبه في سمفونيات بحسبها جديدة .

لقد كنت دائما في موقف حرج تجاه نقل المقطوعات الموسيقية الشعبية . ولكني كنت ابحرا وانقل بعض الاحيان تلك المقطوعات كاملة ولكنها ، والكلمة ليست لي ، بل للشعب ، كانت تأتي في موضع رائع جميل ، تأتي في خلق جديد ، تثير اعجاب الجماهير .

واخذ مثلا اخر من تجاربي في حقل الموسيقى، وذلك في كونشرتو بياهو ، اخذت مادته من اغنية شعبية معروفة ، وكنت اغنيها في شوارع (" تبيليسي " . لقد اخذت لابتعد عن النقل، ديالكتيكية نجعلني ابتعد شيئا فشيئا عن الاصل الذي في الاغنية، وهذا ما جعل النقاد والموسيقيين المعاصرين يصفقون لي طويلا ولهذا العمل الرائع الجديد في كليته . ولكني بينت لهم بعد ذلك خروجي من مادتي الاصلية التي كانت تتمثل بلحن الاغنية الشعبية ثم ابتعادي عن اللحن ، مؤلفا عليه ، وذلك هو ما سعى التطور الالهامي في الموسيقى .

وليس هذا الاسلوب الوحيد او الطريقة الوحيدة لرفع مستوى الموسيقى الشعبية . فهناك انتقاء الالحان الغنية ودمجها في الحاني الخاصة فيصدر عن ذلك مزيج جديد ، يعبر عن اماني واماني الشعب في الوقت نفسه .

واعتقد بان الدراسة الصحيحة هي الدراسة العلمية لكل خصائص الموسيقى الشعبية في ارمينيا وجيورجيا واذربيجان واوزبكستان وتركمانيا .

فالعمل المنعب الملقى على عاتق الموسيقيين والمؤلفين والباحثين ، هو درس كل خصائص موسيقى الشعوب السوفياتية لكي تستفيد منها الاجيال الطالعة التي ستكون الطلائع الموسيقية في المستقبل .

وفي الحقيقة ، ارى نفسي مرغما على القول بعد تجاربي المريرة ، ان الموسيقى الشعبية ، هي بحر واسع لا ينضب . وانبع بصورة جدية ابحاث بعض المؤلفين الشباب من العوفاز شهد الماثر الذي يمارسه هذا البحر الواسع من الموسيقى الشعبية علينا نحن الموسيقيين . فتطوير الموسيقى يكون بنقل الموسيقى الشعبية الى الاعمال الجديدة واعطائها حياة جديدة وروحانية ساحرة .

واريد في نهايه الحديث ان انقل كلمات فيساريون بينلسكي ، الناقد الروسي المعروف الذي كتب عن غوغول يقول : « ان الشكل الوطني في العمل ليس ذات قيمة ، لكنه شرط اساسي لكل عمل فني اذ ينقل الاحاسيس الشعبية بصورة امينة وحقيقية ، وعادات الشعب وامانيه . ان حياة كل شعب تظهر في كادرات خاصة به ، فاذا وضعت في اطار يمثل الحياة الحقيقية للشعب ، يظهر في الوقت نفسه الحس الوطني في العمل . »

لقد اخذت في مقالي ناحيه مهمه هي الامانة في نقل مرامي الشعب واهدافه وحياته بصورة طبيعه وهذا هو العمل الوحيد للفنان الذي اسماه بروكوفييف «الفنان هو صوت الشعب».

(ترجمة : سليم مروان)

عن مجلة: "الثقافة والحياة"

في العدد القادم : مقال حر لخاتشادوريان

يكفينا!

مرمور بالعربية كتبه « كوسو فليك » ونشرته مجلة « ماتس » في عددها ٥٧ (كانون ٢ - ١٩٧١) وترجمه «الهدف» عن العربية .

لو اعطتنا الصهيونية «دولة اليهود»» ولم تستوطن فلسطين لكفانا .

لو انها استوطنت فلسطين ولم تصادر الاراضي لكفانا .

لو انها صادرت الاراضي ولم تقتلع الفلاحين لكفانا .

لو انها اقتلعت الفلاحين ولم تكافح من اجل « العمل العبري » لكفانا .

لو سيطرت على العمل ولم ترفع شعار « اشتروا الانتاج العبري » لكفانا .

واو انها رفعت ذلك الشعار ثم لم تخلق اليسار الصهيوني لكفانا .

ولو خلقت ذلك اليسار ثم لم تخلق اليمين الصهيوني لكفانا .

ولو خلقت اليمين الصهيوني ولم ترتكب « دير ياسين » لكفانا .

ولو انها ارتكبت دير ياسين دون ان تشجب الفاعلين لكفانا .

ولو شجبت اولئك الفاعلين ثم لم تقم بعملية قبية (١) لكفانا .

ولو انها قامت بالعملية ، ثم لم تستنكرها لكفانا ..

ولو استنكرتها ثم لم تحمل مسؤوليتها لـ (١٠١) (٢) لكفانا ..

. ولو فعلت ، ثم لم تجعل من رجال (١٠١) ابطالا لكفانا .

ولو جعلت منهم ابطالا ثم لم تقم بمجزرة كفر قاسم .. لكفانا .

ولو قامت بالمجزرة ثم لم تقدم المجرمين للقضاء لكفانا ..

ولو قدمت المجرمين للقضاء ثم لم تعف عنهم .. لكفانا ..

ولو عفت عنهم ثم لم تتحدث عن « مصلحة قومية عليا » لكفانا ..

ولو ادعت ان «الامة فوق كل شيء» ثم لم تبحث باجتماعها الاسبوعي بموضوع «طهارة السلاح» .. لكفانا..

ولو بحثت بطهارة السلاح وليس بجسر دامية لكفانا .

لو فعلت ذلك ، ثم لم تتساءل : « ماذا كانوا هم سيفعلون بنا » ؟ لكفانا ..

ولو تساءلت « ما كانوا سيفعلون بنا » ولم تفعل بهم ما كانوا هم سيفعلون بنا .. لكفانا ..

ولو فعلت بهم ما كانوا سيفعلون بنا ، ثم لم تشدد على انها تمثل بالنسبة لهم نور الخلاص .. لكفانا !.

فكم وكم حسنة مضاعفة ومضاعفة، للصهيونية ، علينا !

لانها اعطتنا « دولة اليهود » والسكن في البلاد ..

لانها سرقت الارض واقتلعت الفلاحين ..

لانها سيطرت على العمل ، وطالبت بالاخوة القومية .

لانها خلقت اليسار الصهيوني .. وايضا كيبوتس « بارعام » (٣) .

ثم لم تبحث باجتماعها الاسبوعي بموضوع «طهارة السلاح» .. لكفانا..

لانها خلقت اليمين الصهيوني .. وايضا دير ياسين ..

لانها خلقت (١٠١) ضد قبية .

لانها قتلت في كفر قاسم وعفت عن القتلة .

لانها اقامت ماجا لليهود المطاردين.. وايضا القت المتفجرات على « مسعودة شمطوب » ..

لانها قامت « بالعمل المخزي » (٤) في القاهرة .. وأيضا اعلنت ان فاعليها مقدسون ..

لانها اعطتنا اوامر ، وكان معطوها وناقاوها مع او بلا ضمير ..

لانها حررت اراضي محتلة، وطالبت ايضا باعتراف بالحقوق ..

لانها طالبت باخلاء مناطق ، لتبقى الدولة يهودية ..

لانها قررت ان « الامة فوق كل شيء » وكذلك «اسرع وراء الصدق»، لانها قالت بالصدق « هو هدف العالم» واضافت « نحن شعب مختار»،

لانها نفخت فينا روحا مع سم ، وجعلتنا ضوءا للاعداء !

١ - دير ياسين وقبية وكفر قاسم مذابح قام بها الاسرائيليون ضد قرى فلسطينية في ١٩٤٨ و١٩٥٤ و١٩٥٦ .

٢ - (١٠١) هي الكتيبة التي نفذت مذبحة قبية .

٣ - كيبوتس بارعام انشاء حزب المابام .

٤ - « العمل المخزي » هو فضيحة لافون، عندما قام رجال الاستخبارات الاسرائيليون والجواسيس بنسف بعض المنشآت في القاهرة والاسكندرية ، لتحريض اميركا وبريطانيا على مصر.

احدى لوحات سيتا

سيتا مانوكيان محاولات مخلصة لفهم الاشياء .

تاتي اعمال سيتا مانوكيان التي عرضتها في نهاية الشهر الفائت كشاهد على محاولات شديدة الاخلاص للبحث عن اسلوب متميز واكتشاف العلاقات التشكيلية الاساسية بين الموجودات .

وهي اذ تلح على بحثها انما تفعل ذلك كنتيجة جد صحيحة لتثبيت العالم امامها ، وهو بالنسبة لها مجمل « الوضع » الحياتي وغير الحياتي الذي « تحضر » فيه . ومن الممكن جدا ان نتوقف عند حدود هذا التشخيص بالنسبة لرسامة شابة ، الا ان خصوصية وضعها في كون الرسم بالنسبة لها ليست عملية اختيار خارجية انما هي سعي داخلي اساسا لفهم العالم واداة لتفسير مفرداته وفق نسق لا يتفرد من طبيعته (وهو الى حد ما كذلك فحسب وانما لكونه طريا طازجا يوعد بافاق آتية .

ان سيتا مانوكيان تستخدم وعيا خاصا ، حيادنا ، في تناول « موضوعاتها » ، وتقصر اهتمامها اللوني على القليل من المؤثرات اللونية غير البهرة ، وهي عندما تتحدث عن جلال الابيض والاسود وسلم الدرجات بينهما فان ذلك هو الطريق الوحيد الممكن لدراسة ظلال وألوان قطع القماش التي تناولها سيتا بتلاعيبها (ان استخدام الالوان في اسسه التقليدية لتصوير الاشياء ، متعب ومرهق ويعطي نتائج قد تتصد عن جوهر عملية « الدراسة » ، لذلك كان ضروريا ان تتعايش سيتا مع الابيض والاسود وتدرج بينهما الظلال والاضواء .) ، ان لاستخدام التراشف في عملية البحث دوافع تشكيلية محضة ومهما (على من نتائج فانها تبقى في النهاية محصورة في نطاق « الشكل » ، ان التبرير الذهني لقبول و « محاورة » موضوع كالتراشف (الملقاة دون تنظيم على « لا سطح») هو لبرير شكلي ، لذلك فمن السهل جدا على سيتا مانوكيان مثلا ان تتجه الى التجريد الذي لا علاقة له مباشرة بالموجودات، وممكن ايضا وفق نفس التوجيه ان تصبح سيتا رسامة موضوعات لا واقعية انما تعكس منظورا واقعيا مضافا اليه وجهة النظر الخاصة .

ان الطابع التشكلي الخارجي للواقع الذي تتناوله سيتا (الغرفة كمثال) مصاغ بمنظور من نوع جديد ، رغم انه شائر الا انه مفتح وغير قابل للانهاء ، ان المنظور القشر والمحدب الذي تتناول سيتا بواسطته حدود السطوح والتقاءاتها لا يلتقي مع العرف التقليدي في النظر الى الاشياء « كما هي » ، ان العين البشرية تنظر في زاوية بصر واحدة لا سبيل الى « الالمام » بكل التفاصيل التي تراها العين في زاوية نظرها الواحدة الا بتحديد الخطوط وفق منظور جديد شبيه بالتقاط عدسة الكاميرا ذات الزاوية العريضة او العدسة التي تلتقط صورة الموجودات في ٣٦٠ درجة، المتر مهيسا هو الاهذا التناول جاء سهلا ومقبولا . وبالاضافة الى ذلك فان الدخول الى عالم الغرفة الخاوي الذي تقدمه سيتا ، هو دخول جاهزي تقنيه سيتا في بالواقع تخرج منه الى تثبيت انطباع وجهة نظر شخصية (فيما يخص الرسم) وهو ما ينبغي ان يشار اليه بوضوح ، وهذا يعني انها تمتلك ، في معرض واحد ، اكثر من وجهة نظر واسلوب في معالجة مادة الواقع الذي تدرسه .

ان عملية الرسم بالنسبة لسيتا كما ذكرت عملية شخصية ، وهي اكثر اخلاصا لذاتها اذ تعمل وتحرص على ان تعمل ، ان ما يشبع لديها كذلك وايضا كما كملقين هو تقنية وتقاليد المخاولة والنجاح الى حد متناسب في نقل الانفعالات المبلورة الى الاخرين .

ابراهيم زاير